خلال مسببيها لدرجة ان اقصى ما يطمح اليه الوطنيون الحقيقيون هو تقليل الخسائر واسترجاع الانفاس .

هذا الواقع بحد ذاته يلقي ضوءا كاشفا على ناحية اخرى من الازمة والتي لم يقف الوطنيون والتقدميون عندها بشكل كاف ، وهي معالجة القلق ــ او بالاحرى الخوف ــ الذي يعيشه معظم المسيحيين في لبنان . وبرغم اننا نربأ البحث بمثل هذه القضايا من الزاوية المبدئية ، الا ان اي تجاهل للوقائع الموضوعية في هذا المضمار من شأنه ان يغيب عنا حقائق اساسية نصبح في تجاهلنا لها وكأننا نتكلم مع انفسنا راغبين في تثبيت انسجامنا مع انفسنا على حساب الجدوى وحساب الفرص والفاعلية المتاحة امامنا . وبرغم اننا لسنا هنا في مجال تحليل هذا الموضوع الشائك ، الا انه علينا ان ندخله في اطار بحثنا ، من حيث ان مخاوف معظم المسيحيين كانت من العوامل اللاعقلانية والتقسيمية التي انفلتت بعد ان تراخى الانشداد القومي في الساحة العربية ووهنت معها صلابة المجابهة والصمود . النقاط الثلاث الاساسية التي يجب ان تتأكد في هذا الموضوع هي التالية : **اولا ــ** ان الاستشعار بكون الواحد منا ينتمي الى اقلية يعني تغليب الحماية الذاتية من الغير على شعورنا بضرورة تلاحمنا المصيري مع الغير ــ او ما يسمى بالاكثرية . عندما يحدث هذا الشعور وينحصر مفهوم الانتماء حتى يكاد يختنق ، عندئذ تصبح الوطنية الحقة بمفهومها العضوي تذويبا للذات وعملية انصهار لاغية لما قد نتصوره معطيات تميز . **ثانيا ــ** يستتبع هذا الشعور ويغذيه بنفس الوقت تقوقع فكري ، لأن مستلزمات « الدفاع » عن النفس لهذه الاقلية تطلب تكريس حالة الاغتراب ، ومن ثم الدخول في دوامة التأرجح بين الاستشراس والتملق حسب متطلبات الظرف . **ثالثا ــ** في حال استمرار هذا الشعور وهذا التقوقع الى نتيجته المنطقية تصبح الاقلية العددية محكومة بعامل الخوف اكثر مما هي محكومة بقوانين العقل والتطور . ينتج عن هذا الواقع تصور لواقع الاقلية وكأنها محكومة بحتمية الابادة ــ ان لم يكن بالمعنى الجسدي الكامل فبمعنى مبهم يقترب منه ــ هذا الوضع يخرج « الاقلية » من دائرة اي حوار ، اذ انه يفقدها رغبة الحوار والقدرة عليه . اكثر من ذلك فان مجرد الاقتراح على الاقلية بالحوار يتحول الى تصور الحوار وكأنه استدراج للتخلي عن مواقع التشنج التي تصبح عندها السياج الحامي لوجودها .

ان التيار الانعزالي الطائفي حاول ان يجعل من هذا الشعور حالة دائمة بدلا من كونه ظرفيا بالمنظور التاريخي وبحكم قوانين التطور البديهية . الا ان النظام ككل ساهم في تكريس هذا الواقع لا بل ساهم في تشجيع وتقوية مثل هذا الشعور عند مختلف الطوائف . وقد حصل هذا بالفعل . ان كل الطوائف نما في صفوفها الشعور بكونها اقلية . وبرغم الحقيقة انه بالمفهوم العددي ليس هناك اكثرية من طائفة واحدة الا ان التوجه كان نحو جمع الطوائف في اطر الدينين المسيحي والاسلامي ، لكن قبل ان يوصل النظام الطوائف الى هذا المستوى من التنسيق الداخلي ضمن الاطار الديني الاعم كان النظام القائم ضمن لذاته ان كل طائفة تتصرف من منطلق كونها اقلية لتأمين استبدال حقوق الطائفة هذه او تلك بحقوق المواطنين . وما ان تم مثل هذا الاستبدال في التوجه المطلبي وتكرس سلخ المواطن عن ارتباطه بالوطن ككل حتى تصرف النظام وكأنه قائم على تلبية مطاليب الطوائف بدلا عن مطاليب المواطنين . في الواقع قام النظام على محورة نفسه حول التركيب الطائفي فأفقد لبنان كينونته الوطنية ، وما ان تأمن للطائفيين من كل الطوائف العلاقة المباشرة مع النظام حتى ضمن النظام اللبناني القائم لنفسه قدرة على تغليب التيار الانعزالي الراسمالي من خلال الجيوب التي اقامها بنسب متفاوتة من القوة داخل كل الطوائف . الا أن تحول الشعب الفلسطيني من لاجئين